التعلم مدى الحياة: مقالات

مجمع الطيور

البروفيسور عظيم نانجي
هذه نسخة محررة من خطاب حفل التخرج في جامعة ستانفورد، 17 حزيران، 1995.

ملخص

يركز خطاب البروفيسور نانجي هنا على موضوع الوحدة في التعددية. في بيئة عالمية متغيرة، والتي تبدو مهددة بجميع أنواع التفكك وفقدان الأمل، تقدم الجامعة نقطة لقاء لأفراد من خلفيات إثنية ودينية متعدّدة لينخرطوا في حوارٍ وليبنوا رؤية أوسع تشمل جميع هذه التقاليد.

كلمات رئيسية

عالمي، رؤية، تناغم

قائمة المحتويات

- حركات مثيرة في تاريخ العالم
- قيم متغيرة في الوطن
- الوحدة في التعددية
- نقطة لقاء

لم تكونوا هنا لمدة طويلة، ربما لمدة لا تتجاوز أربع أو خمس سنوات. ومع ذلك، خلال ذلك الوقت، قمتم أنتم وجامعة ستانفورد بخلق ومشاركة كل من الحيز الفردي والعام. إنه ذلك المكان وما وراءه، حيث وقعت الكثير من التغيرات المثيرة خلال هذه المدة الزمنية، هو ما أود مناقشته اليوم.

تحركات مثيرة في تاريخ العالم

إن إختياري للعنوان "مجمع الطيور" مبني في الواقع على نص أدبي إسلامي وجدت أن العديد منكم قد قرأه كجزء من النصوص الأساسية المطلوبة في مادة "الثقافة والأفكار والقيم". إخترته [هذا العنوان] ليساعدنا في حبك رواية قد تساعد في تعريف وتقييم جزء من دلالة ومعنى تجربتكم هنا والشعور بالتفكك والتشاؤم الموجود في العالم الخارجي، أي المكان الخارجي. لقد رأينا معا إنحلال الإتحاد السوفيتي والإيديولوجيا التي شكلت أساسه؛ لقد شهدنا حماقة ووحشية الإنسان في البوسنة؛ والشناعة التي لا يمكن التحدث عنها في رواندا وبوروندي؛ وعملية السلام في الشرق الأوسط وإيرلندا الشمالية، والتقدم السياسي والعرقي الإستثنائي في جنوب أفريقيا. كما تم تذكيرنا بأن الصراعات المتمثلة في إجتماع ساحة تيانانمن ما تزال معنا في الصين، وأنه مع كل إستقرارها الظّاهري، يمكن للتطرف أن يظهر بسهولة في اليابان كما في أي مكان آخر. من الواضح أن أي منطقة من العالم ليست مستثناة من نوع المشاكل الاقتصادية والسياسية التي تستمر في محاصرتنا جميعا على إمتداد العالم.

القيم المتغيرة في الوطن

بالإضافة إلى هذا هناك أيضا ظروفنا الداخلية والإقليمية التي تشمل المرآة التي تحملها تفجيرات أوكلاهوما عاكسة إنحطاط ما بدا دائماً أنه أسطوري وغير قابل للتخريب: وهي القيم الأمريكية؛ الإحصائيات المخيفة حول المأزق المدني والتحول في الخطاب والخيارات السياسية، التي تبدو أنها تتكشف لنا بسرعة كبيرة حتى أننا لا نستطيع أن نحكم على نتائجها على المدى الطويل في المستقبل. إن كلاً من جيراننا المباشرين، كندا والمكسيك يصارعان مع مواضيع تدل على تفكك المركز، أي نوع من بلقنة الهويات السياسية والمعايير الاقتصادية .

الوحدة في التعددية

منذ حوالي مائة عام مضى، تم تأسيس هذه الجامعة من أجل خلق فضاء أكاديمي جديد في المقدمة، لتعكس وربما أيضاً لتنافس جامعات الشرق العظيمة: هارفرد، وييل، وبراون، وبرنستون. ولكن كان هناك حداثة ملفتة للنظر فيما يتعلّق بإختيار كيف ستبدو هذه الجامعة. الكنيسة التي خلفكم والأسلوب المعماري لبعض الأبنية في حرم الجامعة هي أحد أمثلة هذا الخيار، مزج الأسلوب الروماني والمتوسطي، المشار إليه أحياناً ببساطة بعمارة "شمال أفريقيا". ولكن في الحقيقة كانت مزيج خصائص عديدة، تمّ ربط التأثيرات الإسبانية الإسلامية بالتحديد بإيحاء البيئة والمواد المحلية: قد نقرأ في عمارة هذا المكان، ما قد مثلته هذه الحداثة على الحدود- محاولة لخلق تناغم في وسط التهجير، إعادة بناء وإنفتاح على التأثيرات المتعددة الموجودة على الحدود. يزودنا تمثيل المكان البصري في العمارة بمفردات ومنظر نستطيع من خلاله أن نقرأ كيف تم التعبير عن التعددية كوحدة. يقدم المزيج المتباين/المتغاير مثالاً عن وضعنا – الجامعة كفضاء تجتمع فيه جميع الحوارات، إننا لن نبني مقامات فردية تعمل على الفصل وإنما أماكن تقدم فضاءً متاحاً للجميع لمخاطبة الأهداف الجماعية والأحلام الفردية. إنه وبهذا المعنى ستانفورد هي جامعة، مكان حيث يمكن مخاطبة وإستكشاف المجتمع فيه. ومن هنا يأتي اختيار عنوان "مجمع الطيور" لأنني أود أن أتحرى معكم وأن أخلق من خلال تلك الرواية رؤية حول تقاطع هذين النوعين من الفضاءات التي تمتد إلى ما وراء همومنا الفردية وتجمعنا معاً، لنقل أنها تجمعنا لكي نحدد ما نتشاركه في مكان عام.

تبدأ القصيدة بإجتماع الطيور في مجمع من أجل مناقشة سؤالين هامين: (1) ما هي نقطة المرجع الرمزية لوحدتهم وسلفهم المشترك؟ و(2) ما هي الالتزامات التي عليهم أن يتخذوها ليكتشفوا هذه الأهداف؟ إختار الطيور شخصية وسيطة تستطيع أن تقودهم خلال رحلتهم ومطلبهم. شعوري هو أن الجامعة تمثل فضاءً وسيطاً و نقطة مرجعية كهذا- مكان إجتماع حيث نطرح أسئلة ونسعى وراء الإجابات، ونناقش تعدديتنا في مكان عام مشترك ونتعلم إستكشاف وصيانة الإجابات التي قد تنتج عن بحثنا. إن وجوداً وسيطاً كهذا هو مقدمة للسعي وراء المعرفة .

عندما افتتحت الجامعة، لا أعتقد أن مؤسسيها قد تخيلوا نوع الحوار الذي يجري هنا اليوم. عند تخطيط استخدامات وتعابير الحياة الفكرية والروحانية والتدين في هذا المكان، لم يكن بإمكانهم تخيل إلى أي مدى سيصبح المجتمع في أمريكا متعدد المعتقدات الدينية وكذلك عالمنا المتداخل حقاً. لا نجتمع هنا ببساطة كأفراد من تقاليد متعددة وخلفيات مختلفة وحسب، وإنما نحن في حوار مع بعضنا الآخر كمشاركين في مسعى مشترك، ونمثل الآخرين خارج هذا المكان ويمكننا التأثير عليهم. تلك هي "الحداثة" التي تبدأ هنا اليوم عندما ترحلون بعيداً عن هذا المكان. أصبح حوارنا الوطني، متأثراً بعوامل أبعد من حدودنا المحلية والوطنية والدينية، أكبر بكثير منذ تم بناء هذه الجامعة، ويحدث هذا الحوار في وقت حيث هناك شعور متفشّ بالأزمة حول من نحن كمواطنين عالميين وكأفراد مؤسسات وطنية. عندما ننظر حول العالم، تبدو التغيرات العالمية والوطنية قد فاقمت فعلاً حالة التفكك. هناك شعور بتشظي الذات والمجتمع.

نقطة لقاء

عندما أفكر في هذه الجامعة، فإنها تبدو ومنذ بداياتها كفضاء فكري جديد- لقد ضمت أكثر من ذلك بكثير. لا أود أن أستخدم العبارة المبتذلة "عالمي" مرة أخرى، ولكنها تساعدنا على تخطي التركيز على الإهتمامات المحلية أو الوطنية. نقوم بجمع ذلك كلّه هنا كممثلين عن العديد من التقاليد لنخلق، كما أظن، رؤية أوسع، رؤية تجسد جميع الذكريات والتقاليد الممثلة في تواريخنا ومؤسساتنا الخاصة وتسمح لنا بخلق نموذج وحدة أكبر قد يوفق بين ما قد يبدو متضاداً أو في حالة نزاع .

بعد أن أوضحت هذه النقطة، دعوني أقول أن لحظات التحول، علاوة على كونها مزعجة للغاية، فإنها تمثل فرصاً مناسبة لأننا نكون مندفعين بشعور بالأزمة، مندفعين بشعور ضرورة إعادة التفكير بأولوياتنا، إعادة التفكير بمن نحن وأن نصل بذلك إلى فهمنا كطريقة لحل مشكلة أعظم، وتأسيس دافع لكل من المناطق التي نمثلها. إن الشيء المفاجئ، كما يبدو لي، هو أنه عند التكلم عن أهداف الوحدة لا تنقصنا مفرداتها أو تجربتها. تشمل كل من تقاليدنا الثقافية والدينية- ولدينا تقاليد ممثلة هنا تعود إلى خمسة أو ستة آلاف سنة- منذ بدايتها رؤية ومفهوماً يدرك حاجتنا لأن نكون معاً، وللإقرار بشعور كل منها بالإلتزام والإنتماء إلى المجتمع البشري .

نحتاج أن نرى إذا ما كان بالإمكان إعادة إحياء العناصر المعكوسة في تواريخنا ومفرداتنا من أجل أهدافنا الجديدة. الطريقة التي نعيش بها معاً في وجه القوى التي تفرقنا وتعزلنا عن بعضنا، ليست مجرد ما نقوم به في مجتمعاتنا المحلية أو نعبر عنه في حياتنا الفردية وحسب، وإنما ما نفعله طبقاً للمبادئ الجماعية، وما نخلقه مؤسساتياً وما نتركه كشيء سيترك أثراً على الأجيال القادمة. لم يعد بإمكاننا بعد الآن أن نخصص أو نحدّ أنفسنا بأي لغة ثقافية أو لاهوتية للوصول للأجوبة التي نسعى إليها .

لدى تفكيري بهذا الموضوع، وجدت إلهاماً في سورة من القرآن عنوانها 'البلد': في العربية قد تدل على وطن، قد تعني مساحة، كما وتعني مكاناً، وامتداداً قد تعني حتى الأرض. في هذا الجزء يخاطب القرآن الرسول محمد ويذكره بأنه لكونه مثالاً للقيم البشرية، فإنه يقف كوريث وراع معاً للقيم التي سبقته على الأرض. عندما ينظر المرء إلى العالم كما هو، نجد أنفسنا مرغمين على الإقرار بأن

حدودنا ومساعينا المتوارثة تقدم لنا دائماً خيارات تغرينا بوضع الإهتمامات الشخصية قبل الإلتزامات الأخرى. إن الإحتمالات والخيارات التي يتوجب علينا أن نتخذها لأشخاص يقعون خارج دائرتنا المباشرة ليست عادة من أولوياتنا. لا يقدم القرآن في مخاطبته للرسول جواباً بسيطاً، أو حلاً، وإنما يطلب منا أن نعير إهتماماً للمركز والأطراف وأن نسعى لتسوية الإختلافات. وفقاً للقرآن فإن نوعية عقل وروح التعاطف والإهتمام البشري، وبناء المجتمع عبر الإلتزام الشخصي والجماعي، هي ما يميز أولئك الذين يصنعون فارقاً عن أولئك الذين يتنقلون خلال الحياة بدون أي إهتمام.

أما اليوم فبالإضافة إلى المجتمعات التي أتت من أوروبا، لدينا في أمريكا تقاليد دينية لديها جذور في آسيا وإفريقيا والأمريكيتين والمحيط الهادئ وأماكن أخرى من العالم. يملك كل من هذه التقاليد الدينية إطاراً من القيم المتجذّرة في حياة المجتمع. نستنبط من الجامعات المعرفة وتقنيات الترجمة التي تستفيد من المهارات المادية والمؤسساتية والتنظيمية التي تترجم المعرفة لتترك أثراً ليس على حياة المجتمعات وحسب وإنما على كل البيئة التي تتفاعل معها المجتمعات. هنالك إمكانية هائلة وراء توحيد الموارد لتجديد فهمنا المشترك والتصرف وفقاً لهذا الفهم .

إن الجامعة الحديثة جزء متمم من بيئة المؤسسات الداعمة التي تساعدنا في بناء مجتمع مدني. إنها ضامن الساحة العامة التي تسمح لنا بصياغة توافق في الموقف. منذ أكثر من مائتي عام مضى، بدأ في أمريكا نقاش حول كيفية خلق مجتمع مدني. ونجمت عنه الكثير من المؤسسات، جامعة ستانفورد أحدها. ولكن ذلك النقاش لم يعد منحصراً بهذا المكان. لقد فاض على بقية العالم. إن الفروقات والموارد التي ذكرتها غير واضحة. لا تصوغ التقاليد الدينية القيم وحسب، وإنما تأتي بمهارات تنظيمية وقيادة عظيمة. لا تأتي الجامعات بتقنيات الترجمة وحسب، وإنما تأتي بطريقة لترجمة تلك القيم من خلال الإرتباط التعليمي والثقافي. تمثل الجامعات أيضاً وسيلة للإندماج لا للصراع. في الحقيقة، إننا نأمل بصدق في جمع التعددية والتنوع بطريقة تبقى فيها كينونتنا واحدة بين الآخريات، وليست مخصصة إلى حد التعصب في إظهار الفقر الفكري في تقسيم المعرفة وبناء فهمنا للحياة على ثنائيات زائفة. نحن نعيش في ثقافة حيث تبدو القيم الغير متعلقة بالسوق أقل وأقل أهمية. إن أضحى إقتصاد السوق وثقافته معيارنا الوحيد للتفكير والتصرف كمجتمات بشرية فإن ذلك سيكون بمثابة تنكر لما تحدثنا عنه اليوم.

في تراث الروحانية الإسلامية، حيث تنعكس مواضيع المجتمع، يطلب "مجمع الطيور" منا أن ننظر أبعد من القيم التي تطرح علينا جميعاً أسئلة: "من نحن؟" و"ماذا يعني أن تكون طيراً؟" و"ما هي "صيرورتنا كطيور؟" كما أنه يطلب منا أن نكون مدركين للحب والعاطفة والإختلافات وأن نهتم ببعضنا البعض. وأخيراً يطرح علينا أيضاً سؤال ما إذا كان هناك تعبير عن "صيرورتنا كطيور" يسمو فوقنا جميعناً؟ إن رحلة الطيور رحلة طويلة، فوق سبعة وديان وسبعة جبال. إن كل واد وكل جبل هو خطوة نحو زوال التفاوت، إضمحلال الحدود، وخلق مفردات مشتركة، وصياغة لغة مشتركة. في النهاية، يبقي ثلاثون طيراً، ربما مثلكم أنتم الذين اجتازوا السنوات الأربع الأخيرة! ثم يجتمعون في مكان وراء الوادي الأخير باحثين عن ذلك التعبير، ذاك "الحديث المختصر" الذي سيخبرهم ما هو الشيء الذي حققوه واكتشفوه. إنهم ينتظرون. ولكنهم لا يسمعون "حديثاً مختصراً"، ولا تتألق أمام أعينهم رؤية عظيمة. وبصمت، يعودون إلى داخلهم ويتفحصون تجربتهم ويركزون على بعضهم البعض. في اللغة الفارسية، الكلمة التي تصف ثلاثين طيراً هي "سيمورغ". إن المكان والكينونة التي اكتشفوها تدعى أيضاً بالسيمورغ، وهو موجدهم الأسطوري. من خلال تجريب مسعاهم وظرفهم المشترك، اكتشفوا ما يتشابهون فيه واكتشفوا مصيرهم .

إن فهماً من هذا القبيل يولد من تجربة الذات ومعرفة الآخر. إنه يولد من سلسلة من لحظات هدوء وصمت أثناء البحث. تقدم الكنيسة والمسجد والمقام والمجمع هذه الأمكنة الهامة، حيث قد نجد بين لحظات الصمت الموجودة ونحتضن إلتزاماً مشتركاً مثل الطيور الثلاثين. قد تمكننا تلك التجربة من حمل كل من القدرة الروحية والمعرفة الفردية التي إكتسبناها ومشاركتها في الفضاء الذي ما وراء الأفق- القرن الواحد والعشرون.

وشكراً